صواريخ ذرية عابرة للقارات

الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب

أرسطو

الثاني من أيلول عام ١٩٩٠، تحت جناح الليل عبرت القوات العراقية خط الحدود الكويتية وغزت دولة الكويت الصغيرة ذات الثروة النفطية الهائلة، وأخضعتها للسيطرة العراقية بالكامل دون مقاومة تُذكر، فارِضة أمر واقع جديد بموجبه تمَّ السيطرة على كامل الثروة النفطية للكويت، وتم الإعلان عن ضم الكويت رسميًا كمحافظة برقم تسعة عشر وتشكيل حكومة كويتية شكلية.

انصعق العالم بأسره وأصيب بصدمة كُبرى إثر هذا العمل الجريء الذي قام به الرئيس العراقي صدام حسين، وما أزال أخدم في الجيش العراقي آنذاك، أصبتُ أنا شخصيًا بصدمة كبيرة حين علمت بالنبأ الصاعق وأنا أتوجه صباحًا إلى معمل تصليح المحركات النفاثة الجوية في ضاحية التاجي شمال بغداد، اعتبرتها آنذاك حركة تكتيكية مؤقتة لغرض الضغط على الكويت لتغيير سياستها.

من الناحية العسكرية يمكن تفسير ما حدث بأنه عملية استثمار النصر الذي حققه الجيش العراقي على الجيش الإيراني في حرب الخليج الأولى، ومحاولة إبراز القدرة العسكرية الكبيرة للجيش العراقي، لاسيما وأن الرئيس صدام حسين قد تسلم الضوء الأخضر من الأمريكان وإخضاع الكويتين لإرادة ومطالب صدام الاقتصادية والنفطية.

لقد حقق الرئيس صدام ما عجزَ عن تحقيقه الزعيم عبد الكريم قاسم سابقًا، ولكن هذا الغزو قد حدث في ظروف مُغايرة تمامًا، وفي ظل نظام سياسي عالمي جديد، وهذا ما لم يدركه صدام.

اعتقد صدام أن الكويتيين يحاولون الإضرار بالعراق اقتصاديًا بعد خروجه مستنزفًا من حربه مع إيران، وذلك عن طريق إغراق السوق النفطية الذي يؤدي إلى انخفاض سعر النفط، وبالنتيجة أدَّى إلى انخفاض كبير في واردات العراق النفطية، في الوقت الذي كان العراق يحتاجها كثيرًا لإعادة بناء بُنيته الأساسية وتعمير ما تمَّ تدميره في الحرب وتسيير عجلة الدولة الاقتصادية.

إن عدم تجاوب قادة الكويت مع مطالب صدام، الأمر الذي اعتبره إعلان حرب على العراق، مع الأخذ بالاعتبار موقف الإدارة الأمريكية الذي جاء على لسان سفيرته في العراق (أبريل غلاسبي) أثناء لقائها بصدام، واعتبارهم الموضوع شأن عربي / عربي داخلي، التي اعتبرها صدام إشارة خضراء، كما – وحسب ما أعتقد– أنه أراد أيضًا استثمار قوته الهائلة التي خرج بها بعد حرب الخليج الأولى، وإظهارها كقوة مُهيمنة رادعة في المنطقة، بسب كل هذه الأمور اتخذ صدام قراره بغزو الكويت.

استمر غزو العراق للكويت عدة شهور على الرغم من صدور عدة قرارت من الأمم المتحدة بضرورة انسحاب الجيش العراقي من الكويت، وكذلك محاولة العديد من القادة العرب والأجانب التوسط لحل الخلاف وإقناع الرئيس العراقي بالانسحاب، إلا أن صدام تعنت وظَل مُصر على موقفه ولم يسحب قواته منها.

كُنت وزملائي الضباط في وحدتي العسكرية نناقش حدث الغزو بحذر شديد، إذ أن أية كلمة إضافية يمكن أن تُؤدي بقائلها آنذاك إلى المهلكة لا محال، ولكن يمكن القول إن الكثير من العراقيين كانوا فرحين نسبيًا لهذا الإجراء دون وَعي أو اكتراث بنتائجه الكارثية غير المتوقعة.

استمر الأمر على هذا الحال والأجواء السياسية مُلبدة ومُغلقة، والاستعدادات العسكرية الأمريكية آخذ بالازدياد، والعالم كله يترقب ويحبس أنفاسه لما سيحصل لاحقًا.

دخل الرائد (ك) ضابط التوجيه السياسي في معملنا إلى مكتبي والذي كان قد نُقل قبل أشهر قليلة إلى وحدتنا، قادمًا من مديرية الاستخبارات في قيادة سلاح الجو العراقي، أدَّى التحية العسكرية دون تكلف وتربع دون استئذان على كرسي يقابلني، أخرج علبة سجائره من جيبه وأشعل لفافته وبدأ ينفث دخانه في أجواء مكتبي النظيفة، الرائد ينحدر من محافظة تكريت مسقط رأس الرئيس صدام حسين، وهذا ما يمنحه قوة ومركز سلطة ويُضفي على كلامه مصداقية أكبر، إضافة إلى مركزه الكبير في حزب البعث الحاكم، هو رجل معتدل القامة نسبيًا أبيض البشرة جميل الطلعة، يتحرك بهدوء مُصطنع وكأنه يُقلد الرئيس صدام في حركاته وطريقة سيره، والتي تُظهره بهيبة أصحاب السلطة.

تحدثت والرائد عن أمور العمل، ثم انتقلنا إلى الأمور السياسية وعن احتمالات حدوث الحرب، وإذا به يُصرح بقناعة صُناع القرار وثقتهم أن الحرب لن تحدث إطلاقًا، وعند استفساري منه عن مبرراته أجابني بحزم:

– إنهم (يقصد الأمريكان) يعلمون جيدًا بقدرة العراق الردعية الهائلة، وهذا ما يجعلهم يفكرون ألف مرة قبل الإقدام على شن الحرب ضد العراق.

– يا إلهي، ولكنهم يحشدون قواتهم وأساطيلهم بأعداد هائلة، فكيف تفسر ذلك يا رائد (ك)!!

– دعهم يحشدون ويقرعون طبول الحرب بقوة، ولكنهم لن يقدروا على القيام بها.

قال الرائد بهدوء كامل وراحة تامة... زدتُ من نبرة سؤالي أكثر ولكن بحذر:

– وهل تستطيع إخباري عن مدى قدراتنا الدفاعية، وما الذي يجعلهم كما تقول يفكرون ألف مرة قبل شن الحرب؟

أجابني:

– لأنه لدينا ما يؤذيهم في الصميم، نعم لدينا الكثير لردعهم.

– وما هو بحق السماء! هل لديك معلومات عن قدرتنا الدفاعية أو الهجومية؟

– سوف أفشي لك سِر يا أخي وسيدي وأرجو أن تحفظه، نعم لدينا يا أخي صواريخ عابرة للقارات...

– هل حقًا لدينا مثل هذه الصواريخ؟ أنت أعلمُ بذلك يا رائد (ك) بالتأكيد، فزدني من معلوماتك وارفع من معنوياتي ولا تبخل.

– نعم لدينا صواريخ عابرة للقارات وتحمل ترابًا ذريًا، وهذا ما يجعلهم يهابون العراق، ولذلك لن يتجرأ أحد للعدوان على العراق تاج رأسهم.

– لم أسمع قط أننا نملك صواريخ عابرة للقارات!

بدهشة كبيرة قلت له...

– نعم لدينا منها الكثير، ولقد قمنا بتجربة أحدها وذلك بإطلاقه على أهداف مُحددة في موريتانيا، حيث حلقت الصواريخ نحو أهدافها بدقة مُتناهية سحقتها بقوة مُحققة نتائج باهرة... وبهذه الصواريخ نستطيع أيضًا ضرب نيويورك وسحقها.

– حقًا... يا إلهي... وهل تستطيع هذه الصواريخ أن تضرب أمريكا؟

– نعم إنها مصنوعة خصيصًا لتصل وتضرب أمريكا، ومداها يصل إلى نيويورك وواشنطن، وهذا سر خوف أميركا من قدرات العراق الاستراتيجية.

– ولكن يا عزيزي ما هذا التراب الذري الذي تتحدث عنه؟

– التراب الذري هو نوع من مُخلفات المواد الذرية التي ننتجها هنا في العراق، وله قدرة تدميرية هائلة، حيث يستطيع تدمير مدن بأكملها خلال ثوانٍ معدودات...

قالها مُبتسمًا متفاخرًا...

– يعني نحن لدينا ما نفخر به ونُقاوم به إذا ما حصل عدوان على العراق!!

– نعم بالتأكيد لدينا ولذلك هُم يخافون من العراق ألف مرة.

– وهل معلوماتك هذه أكيدة يا عزيزي؟

– نعم إنها أكيدة مائة بالمائة ولدينا أسلحة سرية أخرى لا ترغب القيادة بالإفصاح عنها وستكون مفاجأة كبرى.

– هذا يعني أن الحرب لن تقوم، بَشّرك الله خيرًا...

– شكرًا... نعم الحرب لن تقوم إطلاقًا.

أنهى الرائد (ك) حديثه وبعد أن نفث أخر نفس من غليونه مضى إلى وجهتهِ.

هكذا انتهت محادثة الرائد معي قبيل فترة قصيرة من العدوان الأمريكي ضد العراق، لقد حفظت كل ما أفادني به ولكنني لم أحفظ سرهُ، إذ أفشيتُ به إلى العديد من أصدقائي المؤتمنين وبعض أقاربي.

انتهت المُهلة التي أعطتها الأمم المتحدة للعراق لإخراج قواته من الكويت ليلة الخامس عشر من يناير كانون الثاني ١٩٩١، ولكن الرئيس صدام لم يستجب، بعد منتصف ليل السابع عشر من يناير بدأت عاصفة الصحراء واستُهِلت بحملة جوية كثيفة لقوات التحالف، لضرب أهدافها في العاصمة العراقية بغداد وبقية مراكز القيادة، والسيطرة بواسطة الآلاف من الطائرات القاذفة والصواريخ المُسيرة بعيدة المدى نوع كروز وتوما هوك.

ليلتها كنت ومعي عائلتي الصغيرة وعائلة والدي وعوائل أشقائي وشقيقاتي وعائلة عمي وأولاده وعوائلهم، باختصار أن كل أفراد عائلتي الكبرى قد تجمعوا في نقطة واحدة عندي وفي بيتي، كُنا جميعًا نقبع تحت سقف بيتي الواقع في ضاحية الغزالية في جانب الكرخ من بغداد، تجمعنا جميعنا نترقب ما سيحصل بخوف وحذر شديدين، بعد أن كنت قد هيأت جميع مستلزمات الغذاء والدواء وأماكن الحماية الممكنة داخل البيت.

في محاولة منا لتفريغ شحنة القلق والخوف الكبيرة التي عشناها تلك الليلة؛ قمنا بلعب الورق دون رغبة، واحتساء بعض من قناني الجعة العراقية اللذيذة، بغية قتل الوقت وتهدئة أعصابنا، لم تكن قناعتنا قوية في إقدام جميع أمم الأرض على إجراء كبير وعنيف ضد الشعب العراقي، الذي لم يزل يئن تحت وطئة حرب الثماني سنوات مع إيران، وكان رجاءنا من الله ألا يحدث المحذور وتقع هذه الحرب القذرة.

انتهينا من لعبة الورق قبيل منتصف الليل بقليل ولم يحدث شيء، فزادت معنوياتنا قليلاً ولكن هاجسنا لم ينتهِ، كفندق بخمس نجوم اتخذ الجميع أماكن نومهم فيه، وكان الأطفال على غير عادتهم غير هادئين إطلاقًا، وكأن حدسهم كان يخبرهم بحتمية اشتعال نيران الحرب في اللحظات القريبة القادمة. تمدد الجميع في فراشهم ولكن أحد لم يستطع أن ينام، وما أن بدأت عيوننا تشعر بالإرهاق، وجفوننا أخذت تهبط بثقل، وعقولنا تودع وعيها؛ حتى نهض الجميع على أصوات الانفجارات التي كانت تُسمع من كل جهات البيت، انطلقت صفارات الإنذار مُعلنة عن بدء الغارات الجوية، تجمعنا خائفين مرتعبين، بدأ الأطفال بالبكاء وابتعدنا عن الشبابيك خوفًا من تحطم الزجاج، أطفئنا جميع أنواع الإنارة التي بالأساس كانت ضعيفة جدًا، وحبسنا أنفاسنا بانتظار ما سيحصل أكثر، كنت وزوجتي نهتم كثيرًا بابنتنا (فرح) الوليدة حديثًا، والتي

ولدت قبل شهرين فقط، نتنقل بها في أرجاء البيت من مكان إلى آخر كي نضعها في مكان أكثر أمنًا.

اهتز بيتنا من شدة القصف الجوي والصاروخي، وكذلك من صوت وأنوار المقاومات الأرضية العراقية التي استمرت طول الليل، ونورت بقوة سماء بغداد اللاهبة آنذاك، سمعنا هدير شديد لحظة مرور أحد الصواريخ الموجهة كأنه مر من فوق رؤوسنا، حينها زاد هذيان الأطفال من غير إرادتهم، بعض النسوة بدأت بالبكاء رُعبًا من شِدة أصوات القصف واستمر الحال حتى الصباح.

صباح اليوم التالي للعدوان وبعد محاولاتي العديدة للاتصال بقائدي؛ انطلقت إلى الموقع البديل، وهي مدرسة طلاب في منطقة العامرية كُنا قد أقمنا فيها مقر مؤقت، استقر فيه ضباط ومراتب وحدتنا، وتم حفظ بعض من مُعداتنا الهندسية فيها.

قبل أيام من بداية الحرب، وتحسبًا من شحة المواد الغذائية في الأسواق، ولعلمي المسبق بقدوم أهلي جميعًا إلى بيتي؛ قمت بشراء كميات هائلة من مواد التموين الجافة وتخزينها، وكذلك ابتعت كمية كبيرة من مختلف أنواع اللحوم التي غَصَّ بها جهاز التجميد الكهربائي حتى حافته العليا.

أعلنت الحرب رسميًا مع استهداف الطائرات الأمريكية محطات توليد الطاقة الكهربائية في عموم مناطق العاصمة بغداد، الأمر الذي أحال ليل بغداد الجميل إلى ظلام مرعب دامس، اعتقدت أن انقطاع التيار الكهربائي لن يطول كثيرًا ولكنني كنت على خطأ كبير، في حين بدأت كميات المواد واللحوم الموجودة في جهاز التجميد بالتحلل والذوبان، مما استدعى النسوة إلى طبخ بعض من هذه المواد وتقديمها للموجودين، ولكن بسبب حالة الخوف والرعب اللتان أصابتا الجميع أفقدتهم شهية الأكل تمامًا، ولم تقرب أياديهم الطعام إطلاقًا، مما حدا بي لإخراج كميات كبيرة من اللحوم وتجفيف بعضها بعد تغطيتها بطبقة كثيفة من

الملح لغرض زيادة فترة خزنها لطبخها لاحقًا، كما منحتُ الكمية الأكبر منها إلى الجنود المرابطين في نقطة الحراسة القريبة من بيتي.

على الجهة المقابلة للمدرسة التي تقع في ضاحية العامرية؛ كان يقع مقهى شعبي يُقدم الشاي العراقي ذو مذاق الهيل الرائع والقهوة الساخنة، في الأيام العادية يمارس الناس فيه أنواع اللعب الشعبية مثل الدومينو والشطرنج والنرد، ولكن بسبب الحرب وقصف الطائرات والصواريخ؛ فإن زبائن المقهى قد اختفوا ولزموا منازلهم خوفًا.

اعتدنا ومن باب الحيطة والحذر والتحسب من أن تقوم الطائرات الأمريكية بقصف المدرسة بعد أن أعلنوا في بياناتهم – أن الجيش العراقي يستخدم المدارس كمخازن للأسلحة – أن نذهب إلى هذا المقهى، نجلس فيه حيث تمتد عيوننا إلى السماء باحثة عن موجات الطائرات وآثار الصواريخ.

وفي أحد الصباحات الشتوية الباردة والشمس تطلق أشعتها مهزوزة مُنكسرة وخائفة كحال العراقيين البائس؛ كنت أجلس في المقهى أنهب النظر بعيون مرهقة إلى السماء، كي أرقب الطائرات المُغيرة والصواريخ المسيرة كروز – التي تحلق بسرعة منخفضة نسبيًا، وعلى ارتفاعات منخفضة جدًا تُتيح للناظر إلى إمكانية متابعتها – وأدعو الله أن يُنهي هذه الحرب غير المتكافئة بسرعة، أو كما أسميتها في نفسي بالمجزرة البشرية الهائلة من طرف واحد، وألا تطول كأختها وسابقتها التي كانت مع إيران...

في هذه اللحظات طرق في بالي لحظة ولادة ابنتي فرح التي ولدت قبيل بدء الحرب بأقل من شهرين، فرح طفلة جميلة تُضيء كالقمر، بيضاء البشرة شقراء الشعر صغيرة الوزن والحجم، تشبه لحد ما وجه إنسان أوروبي، لذا أطلقنا عليها اسم (بوش) دلعًا وتشبهًا بالرئيس الأمريكي جورج بوش من ناحية الألوان وسحنة الوجه، جاء مخاض زوجتي في مساء يوم كنت فيه أعمل في وحدتي العسكرية في معسكر التاجي شمال بغداد، حينها كان الجيش في وضع

استعداد قصوى، اتصلت بزوجتي هاتفيًا لتعلمني أن موعد ولادتها قد أزف وأنها ترقد في مشفى اليرموك الواقع في جانب كرخ بغداد.

زرتها في اليوم التالي ولم تكن قد أكملت مهمتها، لذا عرجتُ على بيت خالها الواقع أيضًا في ضاحية اليرموك وليس بعيد عن المشفى، قضيت وقتًا طيبًا مع ابن خالها (ص.ج)، حيث احتسينا العرق العراقي اللذيذ مع ما جادوا به من مازات طيبة ومكسرات وأحاديث عن الأوضاع العامة في العراق، التي لم تخلُ عن مواضيع السياسة وصولاً إلى نقاش سياسية عن البيريسكرويكا والغلاسنوست التي انتهجها أخر رئيس للاتحاد السوفيتي السابق وهو ميخائيل جورباتشوف، كانت لحظات طيبة قضيناها بفرح غامر في انتظار مولودنا الموعود.

فجأة قدمت إحدى قريبات زوجتي لتخبرنا بحصول الولادة وأن الله قد رزقنا بطفل جديد، نهضت على فوري واتجهت مسرعًا نحو المشفى، ما هي إلا دقائق معدودات حتى تخطيت عتبته سائلاً عن مكان زوجتي، جلست في غرفة انتظار الزائرين لفترة قصيرة حتى جاءت إحدى الممرضات التي أعلنت عن اسم زوجتي، عندها هممتُ بالوقوف، كانت الممرضة ليست بمعنوية جيدة حين أخبرتي أن زوجتي قد ولدت صبية وليس صبيًا، ولم تكن تتوقع أن أنقدها ببعض المال إكرامًا لبشارتها كما معهود في مثل هذه الحالات، لكني فاجأتها حين قلت لها – الحمد لله إننا قد رزقنا بصبية وسنطلق عليها اسم فرح ابتهاجًا لمقدمها – بدت على المُمرضة علامات الدهشة والارتياح، خصوصًا بعد أن دسست بيدها مبلغًا جيدًا كي تتقاسم به مع زميلاتها المُمرضات الأخريات في قسم الولادة.

لم تكن صحة زائر الحياة الجديدة على ما يرام، وكان يتطلب إبقائها في قسم الولادات الخاصة لعدة أيام، مرت أيام ذهبت أنا مع شقيقة زوجتي الصغرى إلى مَشفى اليرموك، أخذنا صغيرتنا الجميلة فرح وبدلاً أن نذهب بها إلى البيت

مباشرة اتخذنا قرار بالذهاب إلى الأسواق المركزية في ضاحية العدل لتسوق بعض الأشياء احتفاءً بالزائر الجديد، ولهذا اتخذت ابنتي فرح هذا السلوك كطقس دائمي في حياتها وأصبحت تعشق التسوق.

فجأة ودون سابق إنذار وقعت عيني على وجه شخص مألوف وكان الرائد (ك) يسير على بُعد أمتار من أمام المقهى متبخترًا كالملك، بمشيته الهادئة، غير آبه بما يجري، يرتدي بنطلون الجينز ويمسك بطرف سيجارة من نوع أجنبي، ناديت عليه فأقبل، ألقى التحية، دعوته لتناول كأس من الشاي فلبى دعوتي، ألقى بجسده المُكتنز على كرسي انتصب إلى جانبي وبدأنا الحديث... حاولت استغلال هذه الفرصة لأشفي منه غليلي بطريقة غير مباشرة ودون قسوة، كوني كنت قد نقلت حديثه الناري سابقًا إلى أهلي وبعض أصدقائي والذين سخروا مني لاحقًا بعد الهجوم، بحذر وبطريقة ظهرت وكأنها أقرب إلى الجَد والبراءة والمواساة أطلقت استفساري، مع تكلفي برسم ابتسامة رعناء غير مفهومة على وجهي المُتعب، إذ أن أي استفزاز له قد يؤدي إلى نتائج غير محمودة العواقب.

– هل تذكر يا رائد (ك) حين قلت لي إننا نملك صواريخ عابرة للقارات ذات رؤوس تحمل تراب ذري قادرة على ضرب واشنطن ونيويورك فتمحقها وتسحقها، أين هذه الصواريخ ونحن نرى أن صواريخهم تُمطر سماء بغدادنا الحبيبة كل دقيقة وثانية، وتُحيل نهارنا ليلاً وليلنا إلى نهار ساطع؟ أين كلامك يا رائد (ك)؟ (بجدية بالغة) هل تنتظر قيادتنا الحكيمة الوقت المناسب لإطلاقها أم ماذا؟.

بحرج بالغ أطرق الرائد برأسه، تململ في جلسته كأنه يحاول اكتشاف الكلمات من باطن الأرض، جفون عينيه تتحرك كأجنحة الفراشة التي تحاول الهروب، مرات بلع ريقه بصعوبة وأخيرًا انتقى كلماته بعناية كبيرة كي لا يقع في شباك خطأ جسيم وقال:

– لقد تبين أن كل ما قيل لنا كذب... لا نمتلك أية صوراريخ ذرية ولا هُم يحزنون.

وسكت...

– يا إلهي ولكن كيف تقول إنه كذب وأنت بثقة كبيرة قلت لي إننا نملك أسلحة سرية وصواريخ عابرة للقارات وأن الحرب لن تقوم! والأكيد أن هذه الحرب قد قامت وأن الدنيا استعرت كجهنم بالنار، ونحن لم نطلق أي من هذه الصواريخ العابرة للقارات!

أطلق الرائد (ك) ابتسامة المهزوم وقال:

– لا أعرف والله... لقد كذبوا علينا... قد يكونوا حاولوا رفع معنوياتنا بهذا الكلام... وتبين أن الأمر كله هراء في هراء.

هز الرائد (ك) يده بحركة تُعبر عن استخفافه التام واستهزاءه برمة الأمر، نهض من مكانه ومضى... مضى الرائد ولكن الحرب استمرت ولم أره طول فترة الحرب.

لم تكن للعراق أية صواريخ بالستية عابرة للقارات كما ادعى الرائد (ك)، ولم يكن هناك تراب ذري، ولكن الأكيد أن بلدنا إثر قصف الحلفاء له دون رحمة أو إنسانية؛ تحول إلى كومة من تراب.